الباب الثانى

الصراع (١) والكبت (٢)

سبق أن ذكرنا أن فرويد توصل إلى أن أعراض المرض النفسى على اختلافه ترجع إلى حوادث منسية ، هى الأصل فى إحداث هذه الأعراض وهى تتدخل فى تحديد الصورة التى تحدث بها هذه الأعراض. وكانت هذه الحوادث ترجع الى ماض غير بعيد ، وتتصل اتصالا مباشرا بأعراض المرض .

وقد عالج فرويد فى مبدأ الأمر كثيرا من الحالات على أساس أن فى استعادة ذاكرة المريض لهذه الحوادث " المنسية " أساس الشفاء ، ولكنه لاحظ أن كثيرا من الحالات أصابتها النكسة بالرغم من التحسن المبدئى الذى حصل عليه .

وقد لاحظ أن كثيرين من المرضى فى هذه الحالات وغيرها يستعيدون حوادث واقعية أو أوهاما ترجع إلى طفولتهم ، وسرعان ما فطن فرويد إلى الصلة بين هذه وبين ما أصابهم من مرض . وخرج من ذلك بأن من الضرورى لكى يصل إلى شفاء المريض شفاء كاملا ، أن يستمر التحليل حتى يبلغ طبقات العقل العميقة التى تكونت فى أثناء الطفولة المبكرة ، وأن كل محاولة لا تصل إلى هذا العمق لا تنجح إلا نجاحا وقتيا .

فإذا أردنا أن نرسم صورة مفهومة للعقل فعلينا أن نرجع إلى الطفولة الأولى لكى نبدأ مع الطفل ، ونرى كيف ينظر إلى العالم ، وكيف ينظر اليه العالم ، وكيف تنتج من هاتين النظريتين المتقابلتين صورة العقل كما نعرفه .

والطفل إذ يولد إنما يكون كائنا حيا بسيطا غاية البساطة من الوجهة النفسية فهو من ناحية الإحساس والإدراك وغيرهما من جوانب المعرفة فى بدء السلّم ، فمعرفته بالعالم تكاد تكون مقصورة على بعض إحساسات أو إدراكات غامضة

(١) Conflict

(٢) Repression

obeikandi.com

يزيدها التكرار والذاكرة وضوحا شيئا فشيئا حتى تتخذ صورة واضحة بعض الوضوح، أما فهم العالم فهما صحيحا فهو مرحلة متقدمة لاتتأتى إلا بعد أمد طويل نسبيا .

و إن الصورة النفسية للطفل تكاد تكون فى هذا الدور صورة نزوعية خالصة، فهو ينزع نزوعا غامضا إلى استكمال حالة لا يدركها تماما من الاستكفاء ، ولكنه يبدأ فى إدراك نفسه و إدراك كيانه عن طريق هذا النزوع . ذلك أن الطفل قبل ولادته يعيش فى وسط متجانس منسجم يحصل باعتباره كائنا حيا على كل حاجاته من غذاء وهواء بانتظام عن طريق الدورة الدموية "للأم" فهو مستكف حكما لا شعورا وهو فى ذلك كالعضو من الجسم ليس له كيان مستقل عن كيان الأم . ولكنه لا يلبث أن يخرج الى العالم حتى "يجد" أن عليه أن يقوم بنفسه بالوظائف الأساسية فينزع الى العودة الى حالة الاستقرار التى كان فيها فهو ككائن حى "يطلب" أو يحتاج الى الهواء والغذاء والدفء . . الى غير ذلك من المطالب .

وهو لا يحتاج لأن يتعلم أو يتمرن فى هذا الصدد، لأن هذه النزعات ليست الا نزعات "غريزية" أى أن تكوينه بطبيعته يجعله يرمى اليها . فهناك نوع من "الدافع" الداخلى يلتمس الوصول الى حالة الاستقرار التى ذكرنا، أى الى نوع من الاشباع وكلما قرب من هذه الحالة كلما تبلورت عنده بالتدريج نزعة الارتياح أو "اللذه" وكلما بعد عنها كلما تبلورت عنده بالتدريج نزعة عدم الارتياح أو "الألم" .

وهو يحصل على المقومات التى تؤدى الى ارتياحه أو عدمه من البيئة، ولذلك فلا تلبث البيئة — مع اتساع ادراكه — أن تنقسم الى مصادر للذة وأخرى للألم أو أن يصبح المصدر الواحد مصدر لذة حينا وألم حينا آخر .

ونحن نسمى مجموع هذه الدوافع التى ترمى الى الوصول الى الاشباع ، نسمى مجموعها بالنزعات الغريزية أو الدوافع الغريزية ، أو الغريزة فقط .

وقد اطلق فرويد على مجموع هذه النزعات اسم الغريزة الجنسية وذلك لأنها المصدر التى يشتق منه الطفل من مبدأ الأمر ميله "الى" أو "عن" الأشياء فما يجلب له الاشباع هو مما يرتاح اليه أو "يحبه" وما يجلب له الحرمان فهو مما

لا يرتاح إليه أو "يكرهه" ولا يلبث الطفل أن تتحول كراهيته الى نوع من الرغبة في التخلص من مصدر الحرمان ، أو "تدمير" وهذا هو أساس النزعة "الاعتدائية"[1] التي ترتبط بهذه الكيفية بالنزعة الجنسية ارتباطا وثيقا . وعند فرويد أن المحبة والجنسية مسميان لشيء واحد ، خصوصا وأن هذه الأخيرة في صورتها الناضجة عند البالغ انما تشتق من الأولى في صورتها البدائية .

والواقع أن هذا كما قلنا هو الجزء الأساسي في سيكولوجية فرويد وهو الجزء الذي تنبني عليه كل مبادئ التحليل النفسي ونظرياته ، وتنبني عليه طرق الوقاية والعلاج النفسي ، ولكن يجب أن نقف قليلا لنؤكد معنى "الجنس" عند فرويد ، فهو يختلف كما رأينا عن معناه عند غيره من علماء النفس . فالنزعة الجنسية عند فرويد ، تشمل كل وجدان رقيق وتشمل كل أنواع الحب والحنان[2] وهي تتحقق في نواح مختلفة بالحصول على لذات محدودة أو غير محدودة ، وأن كفاءة الانسان لأن يحب أمه أو أباه أو غيرهما كأصدقائه ، أو أن يحب وطنه ، أو يحب العدل والانسانية أو شخصا من الجنس الآخر ، كل هذه ترجع الى اصل واحد وتنبع من منبع واحد ، وبعبارة أخرى إن قابليتنا لأن نحب أو نشعر بالحنان والمحبة والتفاني والغيرة تنبع كلها من منبع واحد هو هذا الدافع الغريزي .

وهذا المنبع هو الذي نستمد منه الطاقة التي تجعلنا قادرين على حب أبوينا في الصغر كما أننا نستمد منه الحب الجنسي الصحيح بعد البلوغ . فكأن المقدرة على كل أنواع المحبة والصداقة والحنان . . . . الخ ، واحدة ترجع الى أصل واحد ، ويصح أن تتحول من حالة إلى حالة أخرى . وبعبارة أعم ، فان نزعة الإنسان إلى الرغبة وإلى الإقبال في مختلف اشكالها وإلى العزوف والإدبار في جميع صورهما — سواء في الناحية الحسية أو المعنوية ، إنما تُستمد من طاقة غريزية واحدة قابلة للتحول في أهدافها وفي وسائلها . فالانسان يرمي إلى اللذة في مختلف أدوار حياته ، يرمي إلى اللذة وهو طفل رضيع ويرمي إلى اللذة بعد أن يكمل نموه ، وفي عهد الكهولة والشيخوخة ، ولكن اللذة تختلف فمنها الحسي ومنها المعنوي . وكل لذة يصل اليها الانسان تعتبر في نظر فرويد اشباعا للدافع

---

(١) Agression

(٢) Flugel : Psychoanalysis

الغريزى الأساسى وكل ألم يلحق به ينصبُّ على هـذا الدافع ، واللذة الجنسية بمعناها المعروف إحدى هذه اللذات التى يرمى إليها الفرد ، وهى فى نظر معظم علماء النفس من أهمها ، ولكنها فى نظر فرويد مُجماع ما يرمى اليه الفرد . فالحياة عنـده تبدأ بمجموعة من الرغبات الحسية التى ترمى إلى الإشباع الحسى ، وهذه الرغبات راجعة إلى دافع أساسى هو الدافع الغريزى ، وكلما تقدم الانسان فى العمر كلما طرأ التحول على هذا الدافع ، فاتجه جزء من قوته أو " طاقته " إلى نواح فكرية أو معنوية أو خلقية أو غيرها ، ولكن يتبقى منه دائما جانب يرمى إلى اللذة الحسية ويتطور هدفه فى داخل حدودها حتى يصل فى النهاية عندسن البلوغ إلى الهدف التناسلى الحقيقى .

فكأن حياة الانسان ترمى أولا وقبل كل شئ إلى حفظ النوع ، فطاقته الغريزية موجهة إلى هـذا الهدف أولا ، ولكن هـذه الطاقة قابلة للتحول الجزئى إلى أهداف أخرى مادية أو معنوية ، إذا وجدت الظروف التى تسمح بهذا التحول وهى موجودة دائما ، وعلى ذلك فمن الطبيعى أن يسمى فرويد هـذه الطاقة التى يستخدمها الانسان فى كل نواحى نشاطه العقلى بالغريزة الجنسية لأن التناسل هو هدفها الأخير بعد مرورها فى أطوارها المختلفة . فكأن نشاط الانسان باعتباره كائنا حيا موجه أساسا إلى التناسـل الذى هو السبيل الى حفظ نوعه ، وكل نشاط آخر هو إما تمهيد لهذه الغاية ، أو اشتقاق منها .

الطفل والأم :

ومركز الأم فى عالم الطفل مركز فريد لأن عالمه يكاد يقتصر فى مبدأ الأمر عليها ، فهى مصدر الاشباع والراحة والطمأنينة حين يجدها الطفل ، وهى فى الوقت نفسه مصدر الحرمان والقلق والحيرة حين يجد الطفل نفسه محروما أو قلقا أو حيران .

ولذلك تكون عواطف الطفل نحو أمه " مجزّأة " من وقت مبكر جدا ، وهى تبقى على هذا التجزأ بعض الوقت ولكن لا تلبث أن تصبح عاطفة الطفل نحو الأم عاطفة حب جارف قوى ، حب أنانى شديد الأنانية لا يعترف " بشريك " ما سواء كان الشريك كبيرا مثل " الأب " أو " صغيرا " كأحد الأخوة ،

هو حب يرمى إلى الاستئثار وينالـه الغضب واليأس والحزن إذا لم ينل الاستئثار الكامل ، هو إذن حب يرمى إلى التملك ويغار ويعادى المنافس ، وبعبارة أخرى تتجلى فيه كل صفات الحب الناضج المعارف فى أقوى صوره ، ومن يراقب الأطفال ويرى حرارة العاطفة وشدتها عندهم يجد أن أى صورة للعشق فيما يلى من العمر لا يمكن أن تدانى هذه الصورة عند الطفل الرضيع .

و"فرويد" يربط بين عشق البالغ وعشق الرضيع ويرجعهما إلى أصل نفسى واحد وإلى نزعة مفرده ، هى النزعة الجنسية . ولعله لو أطلق عليها اسم نزعة حب الأم لجعلها أكثر قبولا لدى الكثيرين من معارضيه .

وتتطور هذه النزعة الجنسية تطورا سنذكره فيما بعد خلال السنوات الخمس أو الست الأولى من حياة الطفل ، وتتسع لتشمل أفرادا آخرين ولكن طبيعتها تبقى هى هى من حيث الإلحاح والرغبة فى الوصول إلى الاشباع .

والأم تمثل البيئة التى يولد فيها الطفل ، فهى التى تعطى وهى التى تحرم ، وهى تعد الطفل لبيئة اجتماعية لها نظم وقوانين خاصة ، وتطلب منه أن يخضع لها من أول يوم فى حياته . تفرض عليه أو تطلب منه مستوى من السلوك لا يستطيع أن يفهمه ، وتتطلب منه أحيانا أن يماشى أحوالا اجتماعية سلخ المجتمع نفسه من حياته آلاف السنين لكى يستطيع أن يتعود عليها .

وليس عند الطفل سبب أو شبه سبب يمنعه من أن يأكل متى شاء ، ويصيح متى شاء ، ويفرغ أمعاءه مما فيها حيث شاء وفى أى وقت أراد ، أو أن يمص أصبعه أو ينام أو يستيقظ أو يدمر هذا أو ذاك من الأشياء التى تقع تحت يده . ومع ذلك فهو خاضع لنظام خاص ، ومرغم على اتباع هذا النظام ضد ارادته ، وعلى خلاف رغبته ، وبلا سبب يستطيع أن يفهمه .

وهذا أول صراع ينشأ بين الطفل وبيئته ، ويجاهد الطفل ويجالد فى التغلب على إملاء البيئة فلا يستطيع . ويجد أن ذلك الذى يملى عليه شخص محبوب هو الأم التى يحبها ويرغب فى ارضائها ، فينتج من ذلك موقف غريب يواجهه الطفل :

وهو رغبته فى إرضاء الأم . ثم رغبته فى ارضاء نزعاته الداخلية

وهكذا ينتقل ميدان الصراع فلا يبقى صراعا بين الطفل والبيئة بل يصبح صراعا داخليا بين رغبتين متنازعتين فى نفس الطفل .

وتتضارب الرغبتان فى نفس الطفل كلما جد موقف يدعو إلى ذلك ، ولكن العقل لا يحتمل الصراع الظاهر طويلا ، فان الصراع معناه انقسام العقل على نفسه ، معناه نشوب نوع من "الحرب الأهلية" بين نزعتين متضادتين وفى ذلك الخطر كل الخطر على كيان الشخص ، ولذلك فلا يلبث الصراع أن ينتهى بحل ، وتكون نتيجة الحل أن تتغلب إحدى النزعتين المتعارضتين على الأخرى ، فتختفى المغلوبة من الميدان وتخليه لغريمتها . ولكن هل الرغبة التى اختفت من الميدان قد انتهت وتلاشت كلية من الوجود ؟ كلا فانها إذ تختفى انما تكمن فقط ، فهى تبعد من الشعور وتتحدر الى اللاشعور ، فتصبح منسية ، ولكنها تبقى مستعدة للظهور وانتهاز الفرص ، لعل الى نوع من التحقيق أو التعبير ، وهكذا ينتهى الأمر كما تنتهى كل حرب أهلية بانتصار الفريق القوى وهزيمة الفريق الضعيف ، فتظهر الأمة بصورة واحدة ويختفى الفريق المغلوب من الحياة الظاهرة للأمة ، ولكنه يعمد الى شتى الوسائل ليحارب خصمه ويسبب له المضايقات ، فيعمل فى الظلام على تدبير المؤامرات وانتهاز الفرص للايقاع بغريمه .

يحدث مثل هذا فى الحياة العقلية فالرغبة التى تُغلب على أمرها تبقى قائمة فى اللاشعور منتهزة فرص التحقيق والتعبير ، ولكنها لا تفنى فناء تاما قط . ويطلق على استبعاد الرغبة أو الفكرة من الشعور ودفعها الى اللاشعور اصطلاحا اسم "الكبت" (١) .

(وعلى ذلك فالصراع بين نزعتين ينتهى دائما بكبت إحدى النزعتين والمكبوت يمحى من الذاكرة ولا يصبح جزءا من شعور الشخص)

والنزعات اللاشعورية المكبوتة التى تظل كامنة أو مختفية فى اللاشعور ، تتحين الفرص المناسبة للتعبير عن نفسها تعبيرا يكون عادة ملتويا أو غير مباشر فتبدو متخفية أو مقنعة فى صور أخرى بدل أن تبدو صريحة سافرة ، وسنرى سبب ذلك فيما يلى .

---

(١) Repression

والخلاصة أن الصراع وما ينشأ عنه من كبت يعود فى الأصل الى تعارض النزعات الغريزية مع البيئة ولكنه يتحول كما رأينا فى مثال (الأم) الى نزاع داخلى بين الرغبة فى ارضاء الأم والرغبة فى التعبير عن النزعات الغريزية ، أى بين البيئة والوسط المحيط بالفرد بوجه عام ، و بين النزعات الغريزية. والذى يقوم بالكبت كما رأينا هو جانب من العقل يصارع و يكبت جانبا آخر ، وتكرار هذه العملية يؤدى الى ثبوت الجانب الكابت وتخصصه فى قمع النزعات وقيامه بوظيفة القمع بصفة دائمة . وهكذا ينفرد جانب من العقل للوقوف فى وجه النزعات والرغبات الغريزية وكبتها متى تعارضت مع هذه النظم والقوانين والمطالب التى تمليها البيئة (الأم وغيرها) ، و يسمى هذا الجانب بالقوى الكابتة[1] . و يطلق على مجموع القوى الكابتة اسم "الرقيب" ومهمة الرقيب فى هذه الحالة تشبه الى درجة ما مهمة الرقيب على الصحف والمطبوعات فى زمن الحرب فهو لا يسمح بالظهور الا لما يوافق عليه المجتمع .

ولكن كما فى حالة الصحف والمطبوعات تحاول الرغبات والنزعات المعارضة أن تحتال على الرقيب فتظهر متخفية — فى ظروف لا يُتوقع أن تظهر فيها — تظهر بصورة رمزية بدل أن تظهر بصورها الحقيقية — وفى هذه الحالة قد تمر من الرقيب وتستطيع أن تنال بغيتها من التعبير عن نفسها .

كما أنها قد تصل إلى التعبير اذا أصاب الرقيب ضعف أو وهن أو كان فى غفلة ، كما فى حالة النوم ، فالأحلام تعبير رمزى عن النزعات المكبوتة ، أو التنويم المغناطيسى ، أو تحت التخدير ، أو المسكر أو التعب الشديد ، أو التحليل النفسى ، وتظهر أيضا من فلتات اللسان ... الخ

هذه الرغبات والنزعات تستعمل حيلا لتصل إلى التعبير وهذه " الحيل اللاشعورية "[3] متعددة وسنجد فرصة لدراسة بعضها .

---

(1) Repressing Forces (2) Censor (3) Unconscious Mechanisms